جهود العرب المحدثين في اللسانيات الوظيفية:

تمام حسان نموذجا

الباحث اعمر بالي
مختبر الأدب والبناء الحضاري
جامعة محمد الأول، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة
المغرب

مقدمة:

معلوم أن الدرس اللساني أحد العلوم التي شغلت العلماء قديما وحديثا، ومعلوم أيضا أنها كانت في الثقافة العربية الحديثة نافذة مفتوحة على العالم الغربي، وهذا الانفتاح هو السبب الرئيس وراء جملة من الإشكالات في قضايا هذا الدرس اللساني، حيث أصبح العالم العربي يشهد اضطرابا واضحا حسب توجه كل باحث لغوي، فمنهم من يمثل الاتجاه الوظيفي ، ومنهم من ينتصر للاتجاه التوليدي، ومنهم من يميل للاتجاه التداولي ، ومنهم من يبحث في اللسانيات المعرفية ، وآخر ينظر في الترجمة اللسانية والحاسوبية...كل ذلك أسهم في إرساء درس لغوي حديث؛ من خلال سلسلة من الدراسات التي قام بها العديد من لغوبي المشرق كإبراهيم أنيس، وعبد الرحمن أيوب، وتمام حسان...الخ. ولسانيي المغرب العربي كعبد الرحمن الحاج صالح، وعز الدين المجدوب، وأحمد المتوكل، ومحمد الأوراغي، وغير هؤلاء ممن اختلفت نظرتهم وتوقّعاتهم لمسار الدرس اللساني كما أسلفنا.

وقد ارتأينا في هذه الورقة الوقوف عند باحث لغوي واحد، وهو تمام حسان ودوره في تطبيق مفاهيم اللسانيات الوظيفية على التراث اللغوي العربي، وما يثار حول ذلك من إشكالات.

ومن هذه الإشكالات التي سنحاول الإجابة عنها ما يلي:

*ما هو السياق التاريخي لظهور الدرس اللغوي العربي الحديث؟ وما مدى انفتاحه على العالم الغربي؟

*ما هي أهم القضايا والإشكالات التي تثيرها اللسانيات الوظيفية؟

*كيف استفاد تمام حسان من اللسانيات الوظيفية ونهل منها؟

*ما هي أبرز قضايا اللغة العربية التي طبق عليها تمام حسان منهج اللسانيات الوظيفية؟ وما موقفه من بعض القضايا التي أثارت جدلا بين الدارسين؟

أما عن المنهج المعتمد في ذلك فتاريخي؛ وصفي؛ قد يطعم بالمنهج المقارن أحيانا تبعا لطبيعة الدراسة، وقد اقتصرنا على ثلاثة مباحث نراها أساسية في ذلك هي:

المبحث الأول: السياق التاريخي لظهور الدرس اللغوي العربي الحديث وأهم قضاياه

المبحث الثاني: تمام حسان ومبادئ اللسانيات الوظيفية

المبحث الثالث: تطبيقات تمام حسان لمنهج اللسانيات الوظيفية على اللغة العربية.

المبحث الأول: السياق التاريخي لظهور الدرس اللغوي العربي الحديث وهم قضاياه

من المعروف أن عالم اللغة السويسري الأصل (فرديناند دي سوسيرFerdinand de Saussure) هو المؤسس الأول لما يطلق عليه اليوم باللسانيات البنيوية، وبالتالي فهو أبوها، خاصة تلك التي عبر عنها في محاضراته؛ التي ألقاها بجامعة جنيف قبل وفاته سنه 1913م، وقد جمعها بعده تلاميذه خاصة (تشارلز بالي Charles Bally)، و(ألبرت شيشهاي Albert Sechehaye)؛ في كتاب قد سُمي بـ: " **محاضرات في اللسانيات العامة**". وقد شكلت أفكاره منطلقا لظهور تيارات واتجاهات مختلفة وكثيرة؛ كلها تعترف لجهد هذا الرجل في مجال البحث اللغوي، ومن هذه التيارات نذكر التوزيعية، والكلوماسيكية، والوظيفية التي هي بؤرة اهتمامنا في هذا الموضوع. وقد ظهرت في أوربا على يد اللغوي الهولندي (سيمون ديك Simon dyke)، ومن أبرز ممثليها في فرنسا أيضا (أندريه مارتنيه André Martinet). وقد استفاد هذا التيار أيضا من مبادرة حلقة براغ التي تمثلت في تقديم أطروحاتهم للمؤتمر العالمي الأول بـ: (لاهاي) سنة 1928م، والتي مثلها (رومان ياكبسونRoman jakobson) و(تروبتسكويTroubetskoï Nikolaï) و(كارجفسكيKarjevsky). وقد سعى الجميع إلى اعتبار اللغة نظاما وظيفيا يهدف إلى تمكين الناس من التواصل.

وفي غضون هذا المخاض وقبل هذه المرحلة بقليل، بدأ الاتصال الفعلي للثقافة العربية بالعالم الغربي في مجلات عديدة كالنقد والأدب مثل: الحركات الشعرية التحررية، والمسرح والقصة، ولم يكن الدرس اللغوي بمعزل عن هذا السياق، فكان أن ظهر رفاعة الطهطاوي الذي دعا إلى إنشاء مجمع اللغة العربية بمصر على غرار المجمع العلمي الفرنسي. ثم أعمال جرجي زيدان التي تمثلت في كتابَيْ: " **الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية**" و " **اللغة العربية كائن حي**".

وفي هذا الكتاب الأخير تأثير واضح في دراسة اللغة بالنظرية الداروينية، ونظرية النشوء والارتقاء[1].

وفي الوقت ذاته بدا التأثر بالجانب الفيلولوجي واضحا في مجموعة من الأعمال التي حملت عنوان "**فقه اللغة**" ككتاب " **فقه اللغة**" لعبد الواحد وافي سنة 1937م، وهناك من فرق بين علم اللغة وفقه اللغة كما هو مبسوط في كتب اللسانيات، كما فعل الدكتور محمود السعران الذي سمى كتابه بـ " **علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي**"، والدكتور محمود فهمي حجازي الذي أطلق على كتابه اسم " **مدخل إلى علم اللغة** "، وكمال بشر في " **علم اللغة العام**"، وغير هؤلاء كثير.

ولا يمكن أن نغفل من هذه الجهود ما فعله عبد المجيد عابدين في كتاب " **المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية**" سنة 1951م، وكتاب "**معجميات عربية سامية**" للأب أغستين الدومينيكي سنة 1950م.

وقد عاصر هؤلاء أصحاب التيسير والدعاة إلى تجديد منهج النحو العربي، بدْءا بما صنعه الدكتور إبراهيم مصطفى في كتابه الشهير "**إحياء النحو**"**1937م**، حيث وجه نقدا لاذعا للنحو العربي ومنهج تدريسه، وبذلك يكون قد فتح الباب وحرك القضية بشدة؛ بعد الذي فعله ابن مضاء القرطبي (592هـ) في القرن السادس الهجري حيث ثار على نظرية العامل والعلل المؤدية إليه. ثم توالت أعمال الباحثين بعده في نقد الدرس اللغوي العربي، ونظرية العامل على وجه أخص، وهو الذي يتجلى في تلميذه المباشر مهدي المخزومي الذي ألف كتابَيْ " **في النحو العربي: نقد وتوجيه**" سنة 1964م، والثاني "**في النحو العربي: قواعد وتطبيق**" سنة 1967م.

ثم بدأت تنهال محاولات إصلاح النحو وتجديد الدرس اللغوي العربي، خاصة مع عودة البعثات العلمية من الغرب إلى مصر كإبراهيم أنيس، وعبد الرحمن أيوب، وتمام حسان، وعبد الواحد وافي، وعبد الصبور شهين، وكمال بشر ...

ورغم كون الهدف واحد من هؤلاء جميعهم، والغرض هو التيسير إلا أنهم انشطروا إلى قسمين: قسم: "سلفي يحاول أن يعيد إنتاج الموروث الحضاري العربي الإسلامي بصيغته القديمة نفسها أو بصيغة معدلة تعديلا جزئيا، وحداثي يحاول أن يتبنى المسار الحضاري الغربي بكل تفصيلاته، ويعلن القطيعة مع القطب الأول"[2].

أما عن أهم القضايا التي عالجها هؤلاء المحدثون العرب فيمكن أن نوجزها في الآتي:

1- قضايا تتعلق بالأصوات، والفونولوجيا، وما يرتبط بها من مقاطع ونبر و ....

2- قضايا الصرف مثل أصل الاشتقاق، واللواصق، وحروف الزيادة، واللفظ والمعنى...

3- قضايا النحو مثل المعاني الوظيفية، والأبواب النحوية، ومحاولات التيسير من خلال إعادة النظر في نظرية العامل.

4- قضايا الدلالة وما يتعلق بها من معاني معجمية، وأنواع الدلالات والسياق، وتاريخها ومجالاتها و...

إضافة إلى قضايا أخرى كالبحث في أصل اللغات واللهجات...

المبحث الثاني: تمام حسان ومبادئ اللسانيات الوظيفية

تمام حسان أحد رواد اللغة المحدثين اللذين تركوا أثرا يُحمد، وقدما راسخة في ميدان البحث اللغوي، وهو أحد زعماء المنهج الوصفي البنيوي الوظيفي في العالم العربي الحديث، والمبشرين بأهميته في دراسة هذا التراث العربي، وكان ذلك بعد عودته من البعثة العلمية التي كانت من مصر صوب لندن سنة 1946م، لينال درجة الماجستير من هناك في لهجة الكرنك من صعيد مصر، ودرجة الدكتوراه في لهجة عدن.

وفي هذه المرحلة تشرب الفكر اللغوي الغربي جيدا، وفهمه فهما طوّعه فيما بعد لخدمة مشروعه اللغوي الضخم، فنهل من أستاذه المباشر فيرث نظرية السياق اللغوية، وفهم عن (دي سوسير Ferdinand de Saussure) و (بلومفيلد Leonard Bloomfield) و (غاريس Poul Griece) و (مازورو maruzeau Jules) وغير هؤلاء ما فهم.

ثم عاد إلى الوطن العربي، وأعلن عن بناء مشروع فكري لغوي يشمل إعادة النظر في التراث اللغوي العربي؛ وفق منظور لغوي غربي حديث، فأصدر سنة 1953م كتاب " **مناهج البحث في اللغة**"، و بعده بسنتين أصدر كتابه الثاني الذي سماه بـ: " **اللغة بين المعيارية والوصفية**"، وكان يسعى من خلالهما إلى إعادة النظر في هذا التراث من حيث المنهج، فصرّح بنفسه قائلا: " لهذا فكرت في أمر الدراسات العربية القديمة من حيث المنهج لا من حيث التفاصيل، وجعلت تفكيري في أمرها مستضيئا بمناهج الدراسات اللغوية الحديثة، فاستطعت أن أحدد لنفسي موطن الداء، وحاولت جهد الطاقة أن أشخصه آملا أن يسهل علاجه بعد ذلك على من يريدون هذا العلاج"[3]. ويقول في موضع آخر: "والغاية التي أسعى وراءها بهذا البحث أن ألقِيَ ضوءا جديدا كاشفا على التراث اللغوي العربي كله منبعثا من المنهج الوصفي في دراسة اللغة"[4].

فبعد أن حدد لنفسه الداء ووجد الدواء المناسب له، واعتبر أن اللغة عبارة عن أنظمة أو كما سماها مناهج، جاء الدور على إخراج أبرز كتبه، وهو " **اللغة العربية معناها ومبناها**"، حيث أظهر فيه أن اللغة العربية عبارة عن أنظمة محكمة، يكمل بعضها البعض، بدءا بالنظام الصوتي والصرفي؛ باعتبارهما مقدمة للنظام النحوي، مرورا إلى نظام المعجم والدلالة. كما أبان عن عبقريته في نظرية القرائن التي استمد نورها من نظرية النظم للجرجاني (ت 471هـ)، ونظرية السياق لصاحبها وأستاذه (جون روبرت فيرث John rupert firth).

وأثناء هذا العمل الأخير والأعمال الموالية له، تراجع تمام حسان عن مجموعة من الأمور مثل: تراجعه عن اعتبار المعجم لائحة من المفردات، وأكد أنه نظام بعد دراسة قامت على العلاقات الوفاقية والخلافية ... وبالتالي تكون أعماله قد مرت بمرحلتين قد حددهما هو نفسه في الجزء الأول من كتاب " **مقالات في اللغة والادب**"[5].

- المرحلة الأولى: ما قبل التأطير.

- المرحلة الثانية: مرحلة الإطار الفكري.

ومعظم دراساته تقوم على أساس النظام الذي يقوم على الوظائف المعنوية باعتبار اللغة أداة ذات وظيفة تواصلية بالدرجة الأولى، ولم يكن هو أول من فعل ذلك، بل يشترك معه الدكتور أحمد المتوكل وآخرون في نقلها إلى الدرس اللغوي العربي.

ولهذا النحو الوظيفي مجموعة من المبادئ التي لا يمكن الاستغناء عنها في أي دراسة وظيفية للغة، وهذه العناصر هي [6]:

- وظيفة اللغات طبيعية، وتتمثل في كونها نظام له خصائص يسعى من خلالها إلى تحقيق عملية التواصل بين المتكلمين.

- القدرة التواصلية، وهنا لا بد من دراسة القدرة التواصلية لطَرَفَيْ هذه العملية بين المتكلم والمخاطب، وهو ما يعرف عند (تشومسكي Noam Chomsky) بثنائية القدرة والإنجاز.

- النظر إلى التراكيب بأصواتها وصرفها ونحوها، وكذا إلى المعجم والدلالة في إطار الاستعمال التداولي.

وخلاصة هذا أن هناك تضافرا بين عناصر النظام اللغوي، وكلها تسهم في محاولة إيصال الفكرة من لسان المتكلم إلى أذن السامع. ولا يتم ذلك إلا بشكل تصاعدي يحكمه سلم تدرجي؛ ذلك أن الوحدة الصوتية الواحدة لا يمكن أن تؤدي معنى وظيفيا دون تركيبها مع وحدة صوتية أخرى، وبالتالي ترقى إلى الوحدة الصرفية (الكلمة) التي لها معنى في المعجم، وهذه الوحدة الصرفية بدورها لا يمكن أن تكسب شرعيتها ووظيفتها دون إدراجها في نظام تركيبي يحكمه النحو، وهذا العنصر النحوي نفسه يحتاج إلى سياق يمثله عنصرا الدلالةِ والتداولية.

وقد أشار تمام حسان إلى كون اللغة: "أخطر الظواهر الاجتماعية الإنسانية على الإطلاق... وتبقى ببقاء ما يدل عليها من المفردات والتراكيب".[7]

فبهذه الوسائل تتحقق الوظيفة التبليغية التي يقول فيها **"أندريه مارتنيه"**: "... اللغة تعبير عن كثير من الأنظمة الأخرى، الوظيفية الأساسية لهذه الأداة التي هي اللغة، هي عملية التواصل: الفرنسية مثلا هي قبل كل شيء أداة تسمح للفرنسيين بإقامة علاقة مع بعضهم البعض. سنرى أن كل تغيير في اللغة عبر الزمن يهدف أساسا إلى التكيف بالشكل الأوفر والأنسب مع إرضاء حاجات التواصل لدى الجماعة التي تتكلمها"[8].

المبحث الثالث: تطبيقات تمام حسان لمنهج اللسانيات الوظيفية على اللغة العربية

اللغة نظام، والنظام يتألف من مجموعة من المعاني التي تجمعها عناصر التحليل: "ولا يمكن تحليل الظواهر اللغوية بعزلها عن غيرها، فهي أجزاء في نسق أكبر"[9].

وقد شبهها دي سوسير بلعبة الشطرنج؛ لأن اللسان عنده: "نظام لا يخرج عن ترتيبه الخاص، وتشبيهه بلعبة الشطرنج يقربه إلى إدراكنا الحسي"[10].

من هذه الزاوية انطلق سوسير واعتبر اللغة ظاهرة اجتماعية؛ لأنه بهذا الاعتبار: "يكون اللسان في ذات الوقت إنتاجا مجتمعيا حادثا عن ملكة اللغة"[11].

وقد ركز تمام حسان في دراسته للغة العربية على هذه المقدمات المتعلقة بنظامية اللغة التي تتكون من أنظمة، واعتبارها ظاهرة مجتمعية تؤدي رسالة إبلاغية بين المتكلمين،

يقول تمام حسان: " وإذا نظرنا إلى اللغة باعتبارها مجموعة من النظم الوضعية الاجتماعية ذات أقسام من الأنماط والعلامات، وجدنا من الممكن أن تستقل بمنهجها عن مناهج العلوم الأخرى ويأخذ منهجها في اعتبار الشكل والوظيفة باعتبارهما أساسين من أسس بنائه، يطبقان في كل فرع من فروع الدراسات اللغوية"[12].

فاللغة من هذا المنطلق تتعدد أنظمتها، وكل نظام يؤدي وظيفته بالتعاون مع بقية النظم الأخرى، وهذه النظم إذا تضافرت تؤدي إلى نظام شامل يحكمه المعنى الوظيفي، وهذا الأمر ذاته سيُنتِج لنا متكلما وباحثا، لكل منهجهما في التعامل مع هذه اللغة مختلف حسب طبيعة المتلقي. يقول تمام حسان بأن المتكلم باختصار هو: "لاعب شطرنج يمسك بالقطع ويحركها على الرقعة، ولكن الباحث مراقب للعبة، يلاحظها عن قرب، ويكشف عن قوانينها وأصول لعبتها. ونشاط المتكلم معياري، ولكن نشاط الباحث وصفي"[13].

ولكن لا بد من الإجابة عن سؤال كبير في هذا السياق هو: **كيف طبق تمام حسان هذا المنهج الوظيفي على أنظمة اللغة العربية؟**

اللغة عنده نظام يتألف من مجموعة من المعاني التي تقف إزاءها مجموعة من المباني، ويتجلى ذلك في القيم التي تربط بينها علاقات، وهي العلاقات الوظيفية حسب اعتقاده[14].

أ – تطبيقاته على المستوى الصوتي:

أول ما نلاحظه في النظام الصوتي عند تمام حسان ذلك التفريق بين المنهج الصوتي (الفونتيك**phonétique**) ومنهج التشكيل الصوتي (الفونولوجيا**phonologie**)، وعبر عن الأول بكونه جهازا للنطق بكل مكوناته، والثاني يمثله النبر والمقطع الصوتي وطرق التنغيم ...[15]

أما الاعتبار الثاني فهو ذلك التمييز بين الفونيم والألوفون، يقول تمام حسان بأن الفونيم: "في أحد معانيه يقصد به معنى الحرف"[16]؛ أي ذلك الصوت الذي يتميز بمخرج وصفة معينين، وله وظيفة الكشف عن القيم الخلافية، بحيث يؤدي استبدال حرف بآخر إلى تغيير في المعنى مثل: (شاب . خاب). هنا أدى استبدال الشين بالخاء إلى اختلاف المعنى. وقد ينتج هذا الاختلاف في المعنى أيضا عن الترقيق والتفخيم كالتاء والطاء في: (تاب وطاب).

وقد تتقارب المخارج والصفات في الكلام، فتتحول صورة الصوت عن أصلها إلى الفرع الواحد أو الفروع المتعددة. وقد مثل تمام حسان لهذه الظاهرة بما يلي:

. مثال الفونيم (الأصل) النون في أنا.

. مثال الألوفون أو الألوفونات (الفرع أو الفروع) الناتجة عن النون في: ينفع/ ينبغي/ من سعى/ من رأى/ ينجح/ ينظر/ ينكر/ ينقل[17].

نستنتج أن فونيم النون في حالته الأولى لم يخرج عن أصله، سواء من حيث الصفة أو المخرج كما في (أنا ونحن). أما في بقية الأمثلة، فقد خرجت هذه النون عن أصلها سواء في المخرج أو الصفة، فنون (ينبغي) مثلا، انقلبت ميما فصارت (يمبغي) نتيجة للتأثر بالباء الشفهية التي جاورتها طلبا للخفة وتيسير النطق.

وجملة الأمر في هذه الظاهرة: "أن تغير المعنى عند المعاقبة يدل على اختلاف الأصلين، وامتناع المعاقبة يدل على وحدة الأصل"[18].

وقس على هذا بقية التطبيقات في النبر والتنغيم والمقاطع.

ب – تطبيقاته على المستوى الصرفي:

في هذا النظام فرق تمام حسان بين الباب والمورفيم والعلامة، أما الباب فهو: " اصطلاح من علم اللغة العام له معنى العموم لا الشمول".

وأما المورفيم فهو: "اصطلاح تركيبي بنائي، لا يعالج علاجا ذهنيا غير شكلي، إنه ليس عنصرا صرفيا، ولكنه وحدة صرفية في نظام من المورفيمات المتكاملة الوظيفة ...".

وأما العلامة فهي: " العنصر الذي يعبر عن المورفيم تعبيرا شكليا، وتوجد في النطق"[19].

ثم إن علاقة العلامة بالمورفيم أشبه ما تكون بعلاقة الصوت بالحرف، وعلاقة المورفيم بالباب كعلاقة الحرف بما ارتبط معه في مخرج تقسيمي واحد، وعلاقة الباب بنظام الأبواب كعلاقة طائفة من الحروف مرتبطة بمخرج تقسيمي واحد بمعناه العام[20].

وكمثال لتأكيد الترابط بين هذه الاصطلاحات الثلاثة نقول: إن باب الفاعل يعبر عنه مورفيم خاص هو الاسم المرفوع، وعلامته محمد مثلا[21].

كما تحدث عن الصيغة وأصل الاشتقاق الذي رآه يتجلى في الجذر اللغوي الذي يعتمده المعجميون، لا المصدر كما يقول البصريون، ولا الفعل كما يقول الكوفيون[22].

كما لم يهمل الملحقات التي تمثلها صدور الكلمات وأحشاؤها وأعجازها، وكذا وسائل خلق الرباعي وغير ذلك من المسائل الجزئية.

ج – تطبيقاته على المستوى النحوي:

يتجلى تطبيق تمام حسان على النظام النحوي في ذلك التمييز بين المعنى الوظيفي والمعنى الدلالي، وأعطى أولوية للمعنى الوظيفي لأنه أحق بذلك، فحين نقول مثلا: إن المعنى الوظيفي لـ: (ضرب) هو فعل ماض، نقصد أنها تقوم في السياق بدور الفعل الماضي، وتؤدي وظيفته النحوية الخاصة به، وحين قال النحاة قديما: إن الإعراب فرع المعنى كانوا في منتهى الصواب في القاعدة، وفي منتهى الخطأ في التطبيق، لأنهم طبقوا كلمة المعنى تطبيقا معيبا، صرفوها إلى المعنى المعجمي حينا والدلالي حينا، ولم يصرفوها إلى المعنى الوظيفي"[23]

نستنتج من هذا الكلام أن تمام حسان يضيف إلى جانب المعنى الدلالي والمعجمي المعنى الوظيفي باعتباره ركيزة التراكيب في اللغة العربية، لذلك أخطأوا تطبيق ما قالوا به في هذه المسألة؛ لأن هناك صلة وثيقة بين الإعراب والمعنى الوظيفي.

كما فصّل القول في نظرية القرائن التي بها اشتهر، وجاء بتقسيم سباعي بدلا عن التقسيم الثلاثي التقليدي للكلمة، وجعله: اسما، فعلا، صفة، أداة، خالفة، ضميرا، ظرفا.

ونظر أيضا في مجموعة من العلاقات الرابطة بين المعاني الخاصة كالإسناد، والنسبة، والإضافة، والتبعية، حينما تدخل في حوار مع التراكيب.

د – تطبيقاته على المستوى المعجمي والدلالي:

في المعنى المعجمي للكلمة يتحدث تمام حسان عن كونه خالٍ من المعنى الاجتماعي والدلالي الذي يحكمه السياق الكلامي والموقف الاجتماعي، ويتطلب إيجاد الحلول الفاصلة بين الكلمات في السياق مجموعة من الطرق والمناهج أهمها:

- الإفراد عن السياق
- الحذف من السياق
- الحشو في السياق
- الإبدال في السياق
- استخدام العلامات الموقعية في الكلام[24].

إذا لجأنا إلى تطبيق هذه العناصر فسنرى أن الضمير (هم) مثلا، يصلح للإفراد عن السياق باعتبار، ولا يصلح باعتبار آخر. أما من جهة الحذف في السياق فنجد في جملة (هم أنفوا منهم)، أن الضمير المرفوع في البداية يمكن أن يستخرج من الجملة، لكننا لا نستطيع إخراج الضمير الثاني المنصوب؛ لأنه مرتبط بعنصر آخر من عناصر الجملة. أما من ناحية اختبار الحشو في الجملة فنحو: (كان المسلمون في القرن التاسع الميلادي هم أصحاب أكبر ملك الدنيا)، بإضافة ضمير الرفع مع وجود الفاعل في الجملة. فالضمير هنا أمكن حشوه في الجملة. كما يمكننا تغيير موقع الضمير داخل السياق نحو تغيير موقع (هم) في نحو: (هم السادة الأخيار) إلى (السادة هم الأخيار). ومن جهة الإبدال في السياق كأن نستبدل الضمير بالاسم الظاهر نحو استبدال جملة: (المسلمون أخيار، بل هم خير أمة أخرجت للناس)، بجملة جديدة عنوانها: (المسلمون أخيار، بل المسلمون خير أمة أخرجت للناس)، وقد يُحتكم أحيانا إلى علامات تدل على موقع الكلمة داخل السياق كواو العطف مثلا[25].

أما في كتابه الآخر الذي هو **"اللغة العربية معناها ومبناها"** فقد نفى عن المعجم نظاميته؛ كما توفرت في أنظمة الأصوات والصرف والنحو، ولكنه يمثل جزءا من اللغة لا من الكلام: "ومحتوياته الكلمات التي هي مختزنة في ذهن المجتمع أو مقيدة بين جلدتي المعجم، وهي صامتة في كلتا الحالتين. ومن ثم يكون المعجم صامتا كصمت اللغة، ويكون ذلك منسجما مع كونه جزءا من اللغة"[26].

لكنه تراجع عن هذا الموقف في كتب لاحقة لهذا الكتاب.

أما على المستوى الدلالي فقد فرق تمام حسان في كتاب " **مناهج البحث في اللغة**" بين علم الدلالة التاريخي، وعلم الدلالة الوصفي، ذلك أن الأول يهتم بتطور دلالات الألفاظ عبر الزمن أو من عصر لآخر، والثاني يركز اهتمامه على الدراسة الآنية للمعنى الثابت. وقد سمى تمام حسان هذه الثنائية بالنظرة الديناميكية والنظرة الاستاتيكية[27].

وقد استدرك في الفصل الثامن من كتاب **"اللغة العربية معناها ومبناها"** مجموعة أمور تهتم بالدلالة أهمها تأثره بمبادئ المدرسة السياقية الوظيفية؛ التي يمثلها أستاذه جون روبرت فيرث، وخاصة ما يتعلق باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية يحكمها عنصُرا المقام والمقام، أو بلغة فيرث السياق اللغوي وسياق الموقف[28].

خاتمة:

شكلت أفكار سوسير نقلة نوعية في الدرس اللغوي الحديث على جميع المستويات، وقد احتك اللغويون العرب المحدثون بهذه الثورة الغربية في اللغة ومناهج دراستها، سواء تعلق الأمر بالذين ذهبوا في بعثات علمية وتتلمذوا لباحثين غربيين كبار كالذي فعله إبراهيم أنيس، وكمال بشر، وتمام حسان، وعبد الرحمن أيوب، أو تتلمذوا بطريقة المطالعة والاحتكاك بمن نقلوا هذه النظريات.

وعلى ضوء هذا؛ حاولوا إعادة النظر في التراث العربي وفق مناهج البحث الحديثة، خاصة تلك الانتقادات التي لاقتها نظرية العامل، بحجة الإصلاح والتيسير والتجديد في النحو والدرس اللغوي عموما، والذي يهمّنا في هذا السياق؛ ذلك الجهد الذي قام به تمام حسان في حقل البحث اللغوي عموما؛ لأن دراسته تعد من أشمل الدراسات النقدية، مع محاول تقديم البديل المناسب وفق المنهج اللغوي الوظيفي.

ولم تكن دراسته هذه أقل أهمية من ذلك الصنيع الذي قدمه الدكتور أحمد المتوكل في نقل الدرس اللساني الوظيفي إلى الجامعة المغربية، وكيف وظفه وطبقه في معظم دراساته.

هذا؛ وقد حاولنا قدر الإمكان في هذا المقال أن نلقي نظرة عابرة على مشروع تمام حسان، وكيف طبق مبادئ هذا الاتجاه اللساني على اللغة العربية، خاصة في كتابيه الشهيرين: **"مناهج البحث في اللغة"** و**"اللغة العربية معناها ومعناها"**.

وقد توصنا وفقا لذلك إلى مجموعة من الخلاصات أهمها:

- اللغة نظام يتكون من مجموعة من الأنظمة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمعجمية.
- اللغة ظاهرة اجتماعية ذات وظيفة إبلاغية قَصْدها التواصل بين المخاطبين.
- اللغة طبيعية يلزم النظر إليها في الإطار الاستعمالي والتداولي.
- تطبيق تمام حسان للسانيات الوظيفية على مستويات اللغة العربية وفق منهج دراسة لغات أجنبية، وعلى ذلك فهو يرى أن اللغة منظمة كبرى تشكلها أنظمة جزئية تتجلى في النظام الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي، كما كان يرفض كون المعجم نظاما من أنظمة اللغة، واعتبره قائمة من المفردات لا غير. قبل أن يتراجع في كتبه الموالية عن هذا الموقف، ويشرعن نظاميته وفقا لمبادئ النظام اللغوي، وعلى غرار بقية الأنظمة اللغوية.

التوصيات:

- ضرورة ربط التراث اللغوي العربي بالبحث اللغوي الحديث، سواء عند الغرب أو العرب.
- بما أن اللغة تتميز بوظيفة التواصل والإبلاغ، فهذا يحتاج إلى جهد آخر، وتوسع: كبير في مجالات علم الاجتماع اللغوي، وعلم اللغة النفسي، والنقد الأدبي، والأنتروبولوجيا، وغير ذلك.
- التعمق في الآراء اللغوية التي قدمها الباحثون، وفهمها الفهم الدقيق، الذي يرمي إلى الاستفادة منها في حقل الدرس اللغوي.

الهوامش:

[1] نشأة الدرس اللساني العربي الحديث: دراسة في النشاط اللساني الحديث، د فاطمة الهاشمي بكوش، الطبعة الأولى 2004م، ص 13.

[2] نشأة الدرس اللساني العربي الحديث: دراسة في النشاط اللساني الحديث، فاطمة الهاشمي بكوش، ص 14.

[3] اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الرابعة ،1421هـ / 2000م، ص 11.

[4] اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، شارع فكتور هيكو، الدار البيضاء، المغرب، طبعة 1994م، ص 10.

[5] مقالات في اللغة والأدب، تمام حسان، عالم الكتب، الطبعة الأولى 1427هـ - 2006م، ج1، ص 07.

[6] الوظائف التداولية في اللغة العربية، أحمد المتوكل، دار الثقافة بالمغرب، الطبعة الأولى 1985م، ص 10.

[7] مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، دار الثقافة، شارع فكتور هيكو، الدار البيضاء، المغرب، (دط)، ص 09.

[8] مبادئ ألسنية عامة، أندريه مارتينيه، ترجمة ريمون رزق الله، دار الحداثة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1990م، ص 13.

[9] في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس اللغوي القديم، خليفة بوجادي، بيت الحكمة، العلمة، ط1، 2009م، ص 18.

[10] فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 2008م، ص40.

[11] نفسه، ص23.

[12] مناهج البحث في اللغة، ص 37.

[13] اللغة بين المعيارية والوصفية، تمام حسان، ص12 – 13.

[14] اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص 38 – 39.

[15] مناهج البحث في اللغة، تمتم حسان، ص 65.

[16] مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص 158.

[17] نفسه، ص 159.

[18] البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، رجب 1413 هـ / 1993م، ص 149.

[19] مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص 206.

[20] نفسه، ص 207.

[21] نفسه والصفحة نفسها.

[22] نفسه، ص 213 – 214.

[23] نفسه، ص 227.

[24] مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص 262.

[25] مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص 263 – 264.

[26] اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص 316.

[27] مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، ص 274 – 285.

[28] اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص 336 وما بعدها.